أســـباب التقليـــد
فى التعليم والتشريع
بمصر الحديثـــة

للدكتور محمد البهى قرقر

فى مقال سابق(1) حاولت أن أبين أن التقليد هو أساس التعليم
تشريع اليوم فى مصر ، أساس التعديل فى برامج التعليم والتغيير
القوانين المدنية والجنائية ، وخصصت بالذكر هاتين الناحيتين
هما مظهر الأمة الثقافى والطابع العقلى الذى يعبر عن
نفسية » الشعب .

وإذا ذكرت التقليد فلا أريد منه الناحيــة الإيجابية التى
أن تشجع وتُنمى فى زمن الطفولة ، فذلك لم يكن هو النظرية
ائدة فى التعليم والتشريع بمصر ، وإنما أقصد النوع السلبي الذى
ذاك ، أقصد النوع الذى لا يتعدى محاكاة الظواهر المقلدة ولا
إلى كيفية تكونها وهو الذى تدفع إليه العاطفة المجردة عن
ية . ولهذا قلما تتخذ الظاهرة المقلدة صفة الثبات والاستقرار ،
سرعان ما تنمحى من الوجود إذا خفيت العاطفة التى بعثت على
ها أو تغلبت عليها عاطفة أخرى تحمل على تقليد مظهر آخر.

لــكل كاتب أو مؤرخ أن يبدى رأيه فى علل هـــذا التقليد
يوضح الباعث عليه . له أن يعتقد مثلا أن السبب هو رغبـــة
الحديثة الفتية النشأة فى مسايرة المدنية الحاضرة والتقدم
عة إلى مصاف الدول الراقية ، فهى لذلك لا غنى لها عن التقليد ،
بفر إذن من أن تتعثر فى طريقه مرة أو أكثر . ولــكن
د الناشىء عن مثل هذه الرغبة فى الأمم الأخرى هو دائماً
بسياسة مرسومة ثابتة تعرف إلى أى شىء تنتهى وأي طريق
، فهو نوع إيجابى من التقليد ، وذلك مالا أعتقده فى الحركة
دية السائرة اليوم فى مصر لأنها حركة هوجاء متقلبة ، تهدم
ما بنته بالأمس ، وتبنى فى الغد من جديد على غير أساس .
لذلك الــكاتب أو هذا المؤرخ أن يعتقــد أيضاً أن العلة هي
الضعف ، إذ يشاهد أن الأمة الضعيفة تقلد القوية فى مظاهرها
لأنها ربما تتخيل المجال مفرغا فى تلك المظاهر — فهى لانحطاطها لم
تتكون عندها ملكة مستقلة للجمال ، مطبوعة بطابعها الخاص ، أو
على الأقل لم تنضج عندها تلك الملكة بعد ، أو لأنها ربما تحاول
بذلك أن تستر ما بها من ضعف ونقص ؛ فما دام شعار القوى مثلا
هو القبعة ، أو ما دامت ميزته فى قوم هو ليس منهم العجمة فى
التعبير ، فربما يُخيَّل الضعيف لنفسه إذا ما وضع القبعة فوق رأسه ،
أو إذا ما أفصح عن مراده فى أمته بغير لغته الوطنية ، أو لهج لسانه
من حين لآخر بكلمات أجنبية ، أنه قد أصبح في منزلة القوى وأن
له أن يتيه كبرا وخيلاء ، ولم يدر أن سلوكه العملى الناشىء عن
صفات نفسية خاصة به ، وأن طريقه فى التفكير الخاضع لبيئته وما
ورثه في دمه عن أسلافه ينم عن أنه ما زال هو الضعيف ، ولــكنه
تزيى بزى القوى فحسب .

وربما يكون الضعف هو السبب الرئيسى والعلة غير المباشرة
لــكثير من صور التقليد ، ولــكن البحث النفسى الحديث يتجنب
الآن بقدر الامكان استنتاج قوانين عامة لجملة من الظواهر النفسية
— لأن ذلك قد مضت مدته بفقدان العلوم الطبيعية والرياضية
نفوذها على العلوم العقلية ، وتأثيرها فى تكوين كليات لها عامة
تشرح بها جزئيات متعددة — ويفتش لــكل ظاهرة عن علتها
الخاصة بها والمباشرة فى تكوينها .

والتقليد الآن فى مصر فى أهم ناحيتين من نواحيها الثقافية
والعقلية : فى ناحيتى التعليم والتشريع ، ظاهرة تغلب على نفسية
الشعب ، أو بعبارة أدق على رجاله المسئولين فى توجيه سياسته
العامة . وإذن لبحث هذه الصفة يجب استعراض المؤثرات التى
أوجدتها فى نفسية هؤلاء وتعهدتها إلى درجة النضوج . وأظن أننا
إذا رجعنا ببصرنا إلى تاريخ مصر الحديثة فى جيل سابق وجدنا
تلك المؤثرات بادية فى شىء واحد : فى الابتعاد عن التربية الوطنية
الذي كان نتيجة لخطة إحدى مدارس التعليم في مصر ولسياسة
أخرى تعليمية كانت تهيمن على مدرسة ثانية منها .

فالتعليم فى مصر ليس واحداً ، والمدرسة التى تخرج منها الشعب
متباينة النزعة مختلفة الغرض . فبينما نرى مدرسة وطنية ، وهي
الأزهر ، تعتمد فى تهذيب أبنائها على ما ورثته الأمة من ثقافة

---

(1) نشر في مجلة الرسالة في العدد ٢١٠

٩٠

obeikandl.com

في صورتها التي احتفظت بها من عصور مضت ، إذا بنا نرى مدرسة أخرى ، وهي مدارس الأرساليات الأجنبية ، تلقن الناشئة المصرية مباديء تنتهي بخلق أمم متعددة في أمة واحدة ، وبفئات من الناس مختلفة لا تجمعهم وحدة في التفكير ولا وحدة في الغرض . وبينما نشاهد هذه وتلك إذا ببصرنا يقع مرة أخرى على مدرسة ثالثة ، وهي مدارس وزارة المعارف ، ليس بينها وبين اللتين قبلها من صلة إلا أنها ربما تكون أو تحاول أن تكون مزيجاً منهما ، ولكنه مزيج لا ينتج عنصراً جديداً كما فقدت فيه كل من مادتيه خواصها .

فالأزهر — في نظر علماء الشعوب والاجتماع — لا شك أنه المدرسة الوطنية التي تربط الأمة بماضيها — وإن كان ينقصها ربط الحاضر بالماضي ، وتلقن جيل اليوم ما كان لخلفه من دين ولغة وعادات خلقية وقومية ، وهو لهذا كان ولم يزل مكان الخطر على الاستعمار الغربي وعلى سياسته في حكم الشعوب الاسلامية كما يراه الأوربيون أنفسهم الذين تخصصوا في السياسة وفي فلسفتها . ففي المجلة[1] العلمية السياسية الألمانية « Valf in Werden » لمخرجها الأستاذ الفيلسوف السياسي Ernst Krieck الأستاذ بجامعة Heidelberg ، بحث جدير بالاعتبار عرض كاتبه لبيان صلة الاسلام ومقدار علاقة الأزهر على الخصوص بالحركات الوطنية في الشرق تحت عنوان « الاسلام والفاشستية » فكاتب هذا البحث يرجع الحركة الوطنية الحالية ضد السيادة الفرنسية في تونس ومراكش والجزائر إلى الأفراد الذين غلبت عليهم الدراسة الوطنية — الاسلامية — وعلى الأخص إلى أولئك الذين تلقوا علومهم في الأزهر بالقاهرة . فالأزهر في رأي هذا الكاتب وفي رأي كثير من أمثاله منبع الخطر على السيادة الأجنبية في الشرق كله .

وفوق ما للأزهر من هذه الصبغة الوطنية فهو مدرسة الشعب والسواد المنتج من الأمة . ولسبب ما ، إما لأسلوبه في التعليم « وعدم تمشيه في وقت من الأوقات على نظم التربية الحديثة » ، أو لشعبيته ، أو لسبب آخر غير هذا وذاك ، ولّت الطبقة المثرية من الأمة من أرباب المناصب الكبرى في الحكومة وجهها نحو مدارس الإرساليات الأجنبية ، وقصدت الطبقة المتوسطة إلى النوع المزيج وهو النوع الحكومي ، وقنع الأزهر بالشعب وبأبنائه طوعاً أو كرهاً ، واضطر لهذا أن يكون بعيداً عن أفق سياسة الدولة ، لأن سيادة الروح « الأرستقراطية » وجدت في ظل الحكم التركي ثم في حكم الاحتلال كل أنواع التأييد فأسلوب التعليم في هذه المدرسة بعيد في ذاته عن التهيئة إلى موجة التقليد الطاغية اليوم في مصر والتي تنذر بالخطر ، لأنه هو نفسه ضد التقليد والعقبة في طريقه ، وكذا رجالها ليسوا ممن يتبعون سياسة التقليد لأنهم أبعدوا عن السياسة العامة للدولة واكتفوا بالتحدث إلى الشعب عن الحياة الآخرة والسبل الموصلة إلى السعادة فيها ، وإن فرطوا بهذا الاكتفاء في حق أنفسهم كأبناء الشعب وفي حق دينهم لإظهاره بالمظهر الروحي فحسب ، أخيراً في حق وطنهم لإقصاء أنفسهم وهم أكثرية عن سياسة توجيه الأمور في الدولة أو لرضاهم بهذا الاقصاء

والمدرسة الثانية ، وهي مدارس الإرساليات الأجنبية كانت — ولا تزال — تعمل على قطع الصلة بين الوطن وتراثه العلمي والديني والخلقي ، وبين أطفاله وشبانه من أهل الطبقة العالية الذين ولوا الأمر فيما بعد ؛ إذ كانت القاعدة أن ينتخب أولو الأمر منهم ثم زودتهم بثقافة أجنبية ملؤها الدعاية لأمة من أمم الغرب بالجنسية الإرسالية . وإن نوع هذه الثقافة قد يكون مختلفاً — وفي الواقع[1] هو كذلك — عن ثقافة البلد الذي تنتمي الإرسالية اتباعاً لخطة سياسية مرسومة لم يُرد بها — كما يريد أو كما يفهمه الشرقي البسيط — القيام بعمل خيري من نشر ثقافة حديثة ومكافحة لأمية ؛ وإنما قصد بها ضمان السيطرة على النفوذ والتصرف في ميولها ؛ فنشأت في الأمة فئة تجهل الأمة نفسها تجهل عقليتها وطباعها ، تحتقر الشعب وتهزأ بتقاليده ، ثم بعد شاء القدر أن يكون زمامه بيدها

ولاختلاف ميول هذه الثقافة واتجاهاتها — وإن كا

(١) عدد يولية سنة ١٩٣٧ من العام الخامس للمجلة صفحة ٣٣٩ ـ ٣٤٨

(١) في المجلة المذكورة يشير الكاتب (صفحة ٣٤٣) إلى أن في ذا نفسها لا يوجد دروس للدين في أية مدرسة من مدارسها بينما ت الحكومة الفرنسية في شمال أفريقيا المبشرين والارساليات التعليمية م جدية في نشر الدين المسيحي بين الوطنيين بنية خلق عدم الوحدة واستخدام بعضهم ضد بعض .

يتحدة في غرض الدعاية — كانت وجهة هذه الفئة الحاكمة مصوبة على العموم نحو ظواهر المدنية الغربية ، واقتباس ما يوحى به ميلها لثقافي ، لا اقتباس ما قد يتفق مع مدنية الأمة وثقافتها القديمة ما يتطلبه الشعب ولا يتعارض مع قوانينه الخلقية وسننه الطبيعية . هنا نجد مظاهر شتى لهذا التقليد أنشأتها ميول الثقافة الأجنبية لمختلفة . فمن تثقف بالثقافة الفرنسية من تلك الفئة — وهو عدد كبير — كان المثل الأعلى في نظره حضارة فرنسا وحريتها لزعومة ، وعمد إلى التقليد في مظاهر الحضارة الفرنسية ، وإلى لاقتباس من القانون الفرنسي ، لأنه يمثل في نفسه ، كما تلقن ، سورة العدالة ، وينطوي في نظره على «حب» الحرية وتقديس معنى لإنسانية — وما كان القانون الفرنسي ، ولا أي قانون وضعي آخر يمثل في يوم من الأيام صورة العدالة على الاطلاق ، ولا ينطوي على حب الحرية للحرية نفسها ، ولا يقدس الانسانية للانسانية ؛ وإلا أعطي القسوة صفة خلقية ، وأنكر على الوطني المستعمر حقه طبيعي في الحياة مادام في ذلك حفظ السيادة الفرنسية . وماشهرة نسا بحب العدالة وبحب الحرية وبتقديس الانسانية إلا لما قامت من الثورة ، كرد فعل نفسي ضد حكم الظلم والاستبداد ؛ ثم تغل بعد ذلك استغلالاً أدبياً في صالحها . وللارساليات التعليمية الدعاية به وخصوصاً في الشرق قسط غير قليل . ثم تكون يجة هذا التقليد عكسية ، ونهاية الاقتباس خاطئة ، لأن مصر رقية غير فرنسا الغربية ، ومصر الضعيفة الحديثة النشأة غير نسا المستعمرة . وبالرغم من ظهور الخطأ وعكسية النتيجة لايدير لد وجهه نحو أمته ويدرس حالها النفسية والاجتماعية ، ثم بس ما تدعو إليه هذه الدراسة ، لأنه لم يألف الأمة ولم يتعرفها طفولته

ومن تثقف بالثقافة الانكليزية عشق تقاليد الأمة الانكليزية يجب على الأخص بالبرلمان الانكليزي وبعراقة الدستور الانكليزي نظام الأحزاب الانكليزية ويتمتع الأقلية بحرية المعارضة ، فيهوى نا ليله تقليد انكلترا في مظاهرها الدستورية ونظامها البرلماني ؛ لكنه يخطئ أيضاً في تقليده ، لأن الشعب المصري ذو صفات ية تغاير تمام التغيير صفات الشعب الانكليزي ؛ له طريق آخر التفكير وأسلوب آخر في المعاملة ؛ هو شعب ناشئ لم تتركز طبائعه بعد ، ولم يروض على عادات خلقية تتناسب وفطرته ، فإذا توقش في خطأ تقليده أصر عليه وسرد تأييداً لإصراره أقوال الساسة الانكليز والعرف الدستوري في البرلمان الانكليزي . وأولى به أن ينظر إلى الواقع وفي أي شعب هو يعيش . أولى به أن يتعلم خواص الشعوب بدل أن يحلق في خيال نظري «قانوني» لا طائل تحته . ولكن ميله الثقافي هو الذي حدد له نهاية الطريق وأملى عليه برنامج السير

ومن تثقف بالثقافة السويسرية يستهويه نظام التعليم ونظام الأسرة فيحاول تقليد الشعب السويسري ، أو بعبارة أخرى يضطر أن يسير في طريق ميوله الثقافية ، والتعليمية — وليس إلا طريق التقليد طبعاً — ثم لا يلبث أن يرى نتيجة تقليده بين يديه خاسرة ، لأن المصري في طبعه وفي ميوله الغريزية غير السويسري الذي هو نفسه بغاير نفسه — وبناء على هذا يتغير نظام تعليمه — في منطقة أخرى من مناطق الاتحاد السويسري . والأسرة المصرية التي حددت عاداتها طريق سلوكها في الحياة وعين دينها ولغتها طريق تفكيرها وفهمها لما يحيط بها ، غير الأسرة السويسرية التي تتطلب أيضاً بحكم الوراثة وبحكم العادات وطبيعة البلاد أسلوباً في التعليم خاصاً بها

وهكذا دواليك نجد العمل الجدي لهذه الفئة تقليداً سلبياً قلما يتحول إلى محاكاة إيجابية ، إلى « التمصير » الذي هو عملية نفسية يقوم بها الفرد كالأمة ، عملية تتطلب أولا أن تنشأ الأفراد تنشئة وطنية ثم تزود بثقافة أخرى أجنبية . وإذن يكون عمل الفرد كعمل الأمة مصبوغاً بصبغة وطنية وفي الوقت نفسه مسايراً لخطي الأمم الراقية . فالأمة اليابانية مثلا تقلد الحضارة الغربية ولكنه تقليد إيجابي ، لأنها تنظر إليها ثم تحاكيها لا في صورتها الأولى ولكن في صورة يابانية شرقية بعد ما تكون قد مزجت بينها وبين حضارتها الموروثة ووفقت بينهما . وهو لهذا تقليد فيما ينفع ، تقليد لا يمس بالخطر العوامل الأولى المكونة لحضارة الأمة ، كأمة مستقلة

فجهل الوطن وما فيه والنزوع إلى التلون بلون غربي — كما هي النتيجة الحتمية لأسلوب هذه المدرسة — من الأسباب القوية لهذا التقليد السلبي ؛ ثم اختلاف النزعة نحو هذا التلون ،

تبعاً لاختلاف نوع الثقافة ، من أكبر العوامل فى كثرة التغيير والتعديل اليوم فى سياسة الأمة التشريعية والتعليمية

وربما تكون تبعة المدرسة الثالثة ، وهى مدارس وزارة المعارف ، فى هذا التقليد أقل من المدرسة السابقة ، ومع ذلك فعليها تبعة كبيرة أيضاً ، لأنها لم ترسم لها خطة تعليمية وطنية ، أو أرغمت ، فطاوعت ، على السير وراء سياسة استعمارية ، سياسة أوربية أجنبية . فالاتجاه الذى توحى به وتخلقه فى تلامذتها لايخلو من مبالغة فى عظمة الغرب واحترام المدنية الغربية ، كأبلغ شىء وصل إليه العقل الانسانى — ولكن لا لخدمة الانسانية ولكن لسيادة القوى — وذلك يقوى غريزة التقليد فى الطفل ويدفعها إلى ناحية معينة قلما تحيد عنها أو تنصرف فى تقليدها ؛ ثم فى الوقت نفسه لا يخلو ذلك الاتجاه من النظر إلى الشرق كوطن وإلى تقاليده ودينه ولغته كمقومات لثقافته من إلقاء نظرة بسيطة عليها قلما يصحبها احترام أو يتبعها تقديس مما يدعو إلى الارتباط بها والحنين إليها

وهكذا يسير الشعب إلى غير وطنه ويقاد فى غير طريقه الطبيعي ويدفع به فى كفاح لم يتهيأ ولن يتهيأ له ، وهو كفاح ضد الطبيعة ومقتضياتها ؛ وهيهات أن يفوز إن لم تهلكه الحرب هلاكا بطيئاً ، وذلك شر أنواع الهلاك وآلمه

فمبدأ التقليد ليس معيباً إذا كان إيجابياً ، لأنه إلى جانب الفكرة الخالقة والعقل المستقل فى الانشاء من عوامل تقدم الأمة ، فما كان لأمة أن تستقل فى نهضتها العقلية بنفسها ولكن يجب عليها أن تكيفها بشخصيتها وطابعها . وهذا التكييف نفسه مدين إلى حد كبير بالاعتماد على ثقافة الأمة الموروثة أو هو نفسه المحافظة على تلك الثقافة والاعتزاز بها

واليوم آن للأزهر أن يعمل على تأدية رسالته ، من ربط حاضر الأمة بماضيها ، فى ثبات وجرأة ؛ وهى رسالة شاقة ، ولكنه راعى الواقع ، فلا يدرى إنسان متى تتهيأ الفرصة للأزهر من جديد ، فيمنحه الدهر رجلاً مستقل الفكر ، قوى الارادة ، صادق العزيمة ، متفهماً للحياة كما منحه فى السابق رجل[1] التاريخ والاصلاح ، وكما يمنحه اليوم بصنوه[2] . فما أشد تقاربهما فى الفكرة ، ولكن ما أبعد المسافة بين توليهما شؤون تلك الجامعة العالمية

وإذا كانت روح السياسة العامة الآن للدولة مشبعة بمجاملة الأجانب ومنحهم حرية كاملة فى تعليم جالياتهم وعدم إلزامهم بثقافة البلد الوطنية — كما هو الشأن فى البلاد الأوربية نفسها — فلا يصح أن تقصر تلك السياسة فى حق أبناء الأمة وتكل أمر تربيتهم إلى جهة أخرى غير الأمة نفسها . يجب أن تفهم حد المجاملة وتدرك ما ينطوى عليه حق الأمة فى استقلالها وحريتها

وإذا كانت وزارة المعارف اليوم تعنى بالثقافة الوطنية بعض العناية فيجب أن يكون الدافع لها عليها مصلحة الوطن والعمل على تحقيق استقلال الأمة لا الرغبة فى كسب عواطف الشعب أو استمالة طائفة منه خاصة ، فما أكثر تغير الشعب فى عواطفه ، ولكن ما أثبته على حب من أخلص اليه فى خدمته !

محمد البهى قرقر
دكتور فى الفلسفة وعلم النفس
وعضو بعثة الامام الشيخ « محمد عبده »

(١) الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده
(٢) الأستاذ الأكبر المراغى

(١) خالتى وقصص أخرى
(٢) وكيل البريد وقصص أخرى
مجموعتان من أقاصيص رابندرانات طاغور
ترجمة عبد اللطيف النشار
(٣) جنة فرعون وقصائد أخرى
(٤) نار موسى وقصائد أخرى
ديوانان من شعر عبد اللطيف النشار
(٥) الاسكندر
رواية تاريخية عن حياة الفاتح الكبير
ترجمة عبد اللطيف النشار
ثمن هذه الكتب الخمسة عشرة قروش
بما فى ذلك أجرة البريد
وتطلب بالبريد من صاحبها بعنوانه :
١٨ شارع الايعادية بمحرم بك بالاسكندرية